

(١)

رمضان شهر الإيمان وصناعة الرجال

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
وبعد :

فإن الإيمان بالله (عز وجل) من أجل نعم الله تعالى على العبد ، حيث يقول الحق سبحانه : { .. وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَّا مِنَ اللَّهِ لِنِعْمَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ، ولا شك أن شهر رمضان المبارك شهر الإيمان الحقيقي ، ولذا بدأت آيات الصيام في القرآن الكريم بالنداء بوصف الإيمان ، فقال سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } .

والإيمان الحقيقي تصديق بكل ما جاء عن الله سبحانه ، والعمل بمقتضى ذلك ، وقد جاء في حديث جبريل (عليه السلام) المشهور بيان حقيقة الإيمان الذي ينبغي أن يتجسد في قلب المؤمن ، حينما سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الإيمان ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) ، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان فقط ، ولكن الإيمان ما وفر في القلب وصدقه العمل ، يقول سبحانه : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) .

أما من انحرف بأخلاقه وتصرفاته عن أوامر الله تعالى ونواهيه فقد انحرف عن طريق الإيمان ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرِبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) .

ولقد صرَّح النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفي كمال الإيمان عنمن يؤدي جاره ، أو من بات شعبان وجاره جائع وهو يعلم ، لأن الإيمان لا بد له من عمل فقال (صلى الله عليه وسلم) : (وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، قِيلَ : وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) .

فالإيمان الحقيقي هو الذي يحفظ صاحبه من التعدي على حقوق الآخرين ، والاعتداء عليهم ، وينقي صدر صاحبه من الحقد والحسد ، والأنانية والأثرة ، والغل والغدر والخيانة ، والفساد والإفساد ، وهو الذي يهذب أخلاق صاحبه فيظهر أثره على سلوكه وسائر تصرفاته وحركته في الكون والحياة ، وتعامله مع خلق الله أجمعين ، رحمة بالإنسان والحيوان والجماد ابتغاء مرضاة الله وحده ، قال تعالى : { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا } .

والإيمان شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إذا قويت أصولها ، وثبتت جذورها ، آتت أكلها كل حين بإذن ربها ، والصيام الحقيقي ينبع من هذا الإيمان ، فيبث في النفس السكينة والطمأنينة ومراقبة الله (عز وجل) ، **فترى الصائم الحق لا يكذب** ؛ لأن الصيام والكذب لا يلتقيان ، فالصيام قائم على أعلى درجات مراقبة الله (عز وجل) في السر قبل العلن ، فهو سر بين العبد وربّه ، والكذب أبرز علامات النفاق

(٣)

وأعلاها في سلمه ، وهو ما يتناقض غاية التناقض مع حقيقة الصيام ، لذا فهما لا يجتمعان ولا يلتقيان ، فإما صائم وإما كذاب ، ولذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) ، وعندما سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: (أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا) ، فَقَالَ: (لَا).

ولالإيمان بالله طعم وحلاوة لا يستشعرها إلا أهل الرضا الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) رَسُولًا) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ).

والإيمان وحسن الخلق قرينان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (أَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَانًا أَحَاسِبُهُمْ أَخْلَاقًا ، الْمُؤَطَّنُونَ أَكْنَافًا ، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ) ، فالإيمان نور، والعبادة نور ، ومن ذاق حلاوة الإيمان ، ولذة العبادة لا يمكن أن يعرف إلا السماحة واليسر وحسن المعاملة ، فلا يتكبر على خلق الله ولا يعبس في وجوههم ، ولا يستطيل عليهم ، ولا يرد السيئة بالسيئة ؛ وإنما يعفو ويصفح ؛ لذا يقول (صلى الله عليه وسلم) : (فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرْفُثْ يَوْمِيذٍ وَلَا يَسْخَبْ ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي أَمْرٌ صَائِمٌ) ، وعلى العاقل أن يدرك أنه قد لا يدخل الجنة بعبادته ، غير أنه قد يدخلها بأخلاقه وسماحته، وحسن معاملته للناس ، وفي هذا المعنى يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ

(٤)

قَبْلَكُمْ ، فَلَمْ يُوْجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَكَانَ مُوسِرًا ، فَكَانَ يَأْمُرُ غُلَمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ ، فَقَالَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) : (نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ) .

على أننا نؤكد أن الإيمان الحقيقي نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد ، فيورثه الحكمة واليقين ، ويجعله يرى بنور الله (عز وجل) ، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج يوماً فاستقبله شاب من الأنصار يقال له: حارثة بن النعمان، فقال له: (كيف أصبحت يا حارثة؟) قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (انظر ما تقول، فإن لكل حق حقيقةً، فما حقيقة إيمانك؟)، قال: عرفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهارِي، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعادون فيها، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): (أبصرت فالزم مرتين) ، عبد نور الله الإيمان في قلبه) .

والإيمان شعب متعددة ينبغي على كل مؤمن أن يحرص على الالتزام بها ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبةً ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) ، ولما سأل رجل الحسن البصري (رضي الله عنه) : أمؤمن أنت؟ فقال له: "الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} فوالله ما أدري أنا منهم ، أم لا " .

(٥)

والإيمان الصادق يورث صاحبه الأمن والأمان ، والحياة الطيبة التي لا تتحقق إلا به ، يقول تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً } ، ويقول سبحانه : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } ، والله در القائل :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان *** ولا دنيا لمن لم يحي ديننا
ومن رضي الحياة بغير دين *** فقد جعل الفناء لها قرينا
أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
إخوة الإسلام :

إذا كان رمضان هو شهر الإيمان ، فإنه أيضًا شهر صناعة الرجال ؛ فالصيام مدرسة عملية تبرز الرجال الحقيقيين ، يقول أحمد شوقي : "الصوم حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ، لكل فريضة حكمة وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة، يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن البر ، حتى إذا جاع من ألف الشعب ، وحرمت المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، وكيف ألمه إذا لدغ".

إن المتأمل في القرآن الكريم يدرك أن الرجولة وصف لم يمنحه الحق تبارك وتعالى إلا لمن امتلك مؤهلاتها ، والتي منها : **صدق العهد مع الله سبحانه** ، دون تغيير ، أو تبديل ، أو انحراف ، قال تعالى : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } ، كما أن الرجال

الحقيقين هم من باعوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين ، ويظهر ذلك في **التضحية بالنفس والمال في سبيل الدين أو الوطن أو العرض** ، ابتغاء مرضات الله ، قال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .

إن رمضان شهر عمارة المساجد وقيام الليل ، وهما من أهم عوامل بناء الشخصية وصناعة الرجال ، يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه (صلى الله عليه وسلم) : { يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ * قِمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَلَطْنَا عَلَىكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا } ، ويقول سبحانه : { فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } ، ويقول جل شأنه في وصف أهل الجنة : { كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } ، ويقول تعالى : { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

إن قيام الليل من الأمور التي ينبغي أن نحصر عليها خاصة في العشر الأواخر من شهر رمضان اقتداء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يجتهد في هذه العشر ما لا يجتهد في غيرها من الأيام ، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا دخل العشر شد منزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله) ، ومعنى شد المنزر : أي اجتهد في العبادة وبذل وسعه فيها ، وقيل : كناية عن اعتزال النساء ، وقالت (رضي الله عنها) : (كان رسول الله (صلى الله

(٧)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَخْلُطُ الْعِشْرِينَ بِصَلَاةٍ وَنَوْمٍ ، فَإِذَا كَانَ الْعَشْرُ شَمَرَ وَشَدَّ الْمِئْرَةَ ، وفي رواية قالت : (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره).

إن رمضان يصنع الرجال بكبح جماح النفس ، والسكينة ، ويقظة الضمير ، وانضباط السلوك ، وحسن التصرف ، وإعلاء القيم الخلقية والإنسانية ومكارم الأخلاق التي تنظم سلوك الإنسان ، وتجعله مستقيماً في كل شؤون حياته ، فيحفظ الحقوق ، ويؤدي الواجبات ، ويسعى لتحقيق كل أنواع الخير والصلاح لنفسه ، ولمجتمعه ، ولوطنه ، ولأمته ، ومن ثم ينعكس ذلك على استقرار المجتمع وتقدمه ، وتنتشر روح المودة والألفة والرحمة ، وغيرها من المعاني النبيلة التي تسهم في تقدم الشعوب وتحضرها .

فلنحرص على أن نغتنم هذه الأيام بالذكر والدعاء ، وتلاوة القرآن ، والاجتهاد في فعل كل ما يقربنا إلى الله (عز وجل) ، حتى لا نكون من المحرومين من رحمة الله تعالى في الأيام المباركة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامٍ دَهْرَكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا) .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.